

سلسلة الإصدارات المكتبية المحكمة لـ "شمن"

الإصدار الواحد والمشارون



علم النفس

في التراث العربي الإسلامي

التي رشيد طه

عدد 21 - 2011



إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

علم النفس
في التراث العربي الإسلامي

الزيير يتير طه

المحتوى

6	تقديم: بروفسر مالك بدري
8	الشكر والعرفان
9	الإهداء
10	المحتويات
14	الباب الأول :
14	1.1. تقديم خطة الكتاب
14	2.1. مفهوم التراث
15	3.1. خصائص علم النفس في التراث الإسلامي
17	4.1. مصادر سايكولوجيا التراث
21	الباب الثاني : الفلسفة العصبية في كتاب القانون في الطب
21	1.2. نظرات تراثية في الأسس البيولوجية للسلوك
22	2.2. الدماغ
24	3.2. سايكوفيزيولوجيا البطنيات عند ابن سينا
25	4.2. نظرية الاتصال العصبي NEUROTRANSMISSION السينيوية
26	5.2. مفهوم الروح العصبي عند ابن سينا
28	6.2. النخاع الشوكي
29	7.2. الأعصاب الدماغية
30	8.2. الأعصاب النخاعية
31	9.2. خاتمة
31	10.2. المراجع العربية
32	11.2. المراجع الإنجليزية
33	الباب الثالث : النمو العقلي بين ابن طفيل وجان بياجيه
33	1.3. النمو العقلي بين ابن طفيل وجان بياجيه
34	2.3. سايكولوجيا حي ابن يقظان
36	3.3. مراحل النمو العقلي بين ابن طفيل وبياجيه
37	4.3. العمليات العيانية عند ابن طفيل
39	5.3. مرحلة العمليات الصورية عند ابن طفيل
40	6.3. مرحلة الإلهامات
41	7.3. قوانين النمو عند ابن طفيل
42	8.3. الاختلاف بين ابن طفيل وبياجيه
45	9.3. المراجع العربية

45	10.3. المراجع الأجنبيةة
48	الباب الرابع : سايكوفيزياء الإبصار عند ابن الهيثم
48	1.4. ملخص
48	2.4. سايكوفيزياء الإبصار عند ابن الهيثم
49	3.4. جهاز الإبصار
54	4.4. أسس البناء الهندسى للعين
55	5.4. كيفية الإبصار
57	6.4. سايكوفيزياء الإبصار
58	7.4. إدراك البعد
60	8.4. إدراك الوضع
61	9.4. إدراك الحجم
63	10.4. المراجع العربيةة
63	11.4. المراجع الأجنبيةة
64	الباب الخامس : الوظائف الذهنية وآلتها العصبية في التراث الإسلامى
64	1.5. مقدمة
64	2.5. الوظائف الذهنية وآلتها العصبية في التراث الإسلامى
65	3.5. القوة المصورة (الخيال)
67	4.5. الحس المشترك
68	5.5. القوة الوهميةة
71	6.5. الحافظة الذاكرةة
73	7.5. كيف تقوم الحافظة بصيانة ما فيها من معان
74	8.5. القوة المتخيلةة
76	9.5. الأسس العصبية للقوة المتخيلةة
77	10.5. المراجع العربيةة
77	11.5. المراجع الأجنبيةة
82	الباب السادس : أسس وملامح نظرية التعلم في التراث الإسلامى
82	1.6. ملخص
82	2.6. مقدمة
84	3.6. الإشرط عند ابن سينا والغزالى
85	4.6. تفسير الاشرط في التراث الإسلامى
87	5.6. تعلم العلوم العقليةة
90	6.6. الخاتمةة
91	7.6. المراجع العربيةة
92	8.6. المراجع الأجنبيةة

- 93 الباب السابع : الذكاء لدى الإمام ابن
الجوزي (510 – 597هـ)
- 93 1.7. الذكاء لدى الإمام ابن الجوزي (510 – 597هـ)
- 93 2.7. مباحث الذكاء في التراث العربي الإسلامي
- 95 3.7. نظرية الذكاء لدى ابن الجوزي
- 96 4.7. تعريف الذكاء
- 98 5.7. المناشط العقلية لدى ابن الجوزي
- 98 6.7. المعارض
- 98 7.7. الجواب المشكت
- 99 8.7. التخلص من الآفات
- 100 9.7. الاحترازاات
- 101 10.7. قياس الذكاء بين ابن الجوزي وبينه
- 104 11.7. محددات الذكاء في نظرية ابن الجوزي
- 105 12.7. فيزيولوجية الذكاء
- 106 13.7. الذكاء ومورفولوجية الجسم
- 107 14.7. القامة والقوام
- 108 15.7. القصور العقلي
- 108 16.7. صفات الأحق
- 109 17.7. مستويات القصور العقلي
- 110 18.7. القيمة التطبيقية لنظرية ابن الجوزي
- 110 19.7. المراجع العربية
- 111 20.7. المراجع الأجنبية
- 113 الباب الثامن : اضطرابات الذهان وأدويتها النفسية
- 113 1.8. اضطرابات الذهان وأدويتها النفسية
- 113 2.8. الماخوليا وأسبابها
- 115 3.8. الماخوليا أنواعها وأعراضها
- 115 4.8. السوداء المحترقة في الدماغ وأعراضها
- 115 5.8. أعراض السوداء من خارج الدماغ
- 116 6.8. المانيا (Mania) أو الهوس
- 116 7.8. القطرب
- 116 8.8. داء العشق
- 118 9.8. الأدوية النفسية في القانون ومضادات الذهان
- 118 10.8. المفرحات (Borago officinalis)
- 118 11.8. البابونج (Matricaria chamomilla, L)

- 119 Chrysanthemum) (trevir) الاقحوان
(cinerarifoium. L.
- 120 (Helleborous niger. L.) الخريق الأسود .13.8
- 120 (Aptemisia absinthium) الأفسنتين .14.8
- 120 (Aloe Vera) الصبار .15.8
- 121 (Anethum gravealens.L.) الشبث .16.8
- 122 المراجع العربية .17.8
- 122 المراجع الأجنبية .18.8
- 125 الباب التاسع: الصحة النفسية لدى أبو
زيد البلخي
- 125 1.9. الصحة النفسية لدى أبو زيد البلخي
- 125 2.9. ملخص
- 126 3.9. في تعريف الصحة النفسية
- 128 4.9. الأعراض النفسانية
- 129 5.9. الغضب
- 131 6.9. في تسكين الخوف والفزع
- 133 7.9. في تدبير الحزن والجزع
- 135 8.9. الاحتيال لدفع الوسواس
- 136 9.9. في تدبير الوسواس
- 139 10.9. المراجع العربية
- 139 11.9. المراجع الأجنبية
- 140 الباب العاشر: كيف تأثر علم النفس
المعاصر ببيكولوجيا التراث
- 140 1.10. كيف تأثر علم النفس المعاصر ببيكولوجيا
التراث
- 140 2.10. معابر الاتصال
- 141 3.10. ما بعد المعابر
- 142 4.10. علم النفس من المنظور الإسلامي
- 143 5.10. التأسيس لماذا؟
- 148 6.10. ماهية الإنسان
- 148 7.10. فما هي الشواهد العلمية التي تسند هذا
التصور الثنائي للإنسان
- 149 8.10. فماذا عن الدماغ
- 151 9.10. الاتجاهات النظرية الجديدة في علم النفس
- 153 10.10. المراجع العربية
- 153 11.10. المراجع الأجنبية

تقديم

كنت أدرس مقرر مساهمات علماء التراث الإسلامي في ميدان علم النفس لطلاب الدراسات العليا في المعهد الإسلامي العالمي التابع للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا لعدة فصول دراسية. وكنت استعين في تدريسي بكتب ألفها علماء عرب محدثين من أمثال الدكتور محمد عثمان نجاتي وشحاتة وغيرهم من المؤلفين. كما كنت أقرر على طلابي قراءات في المصادر الأساسية التي كتبها علماؤنا القدامى من أمثال الغزالي وابن سينا والبلخي. وكنت أشعر بالصعوبة والملل التي يجابهها طلابي وهم يدرسون عالم بعد عالم ويحاولون جهدهم في استخلاص الإسهامات النفسية من بين ركام الفلسفة اليونانية التي تأثر بها كثير من علماء التراث. هذا في جانب الصعوبة. أما الملل، فكان بسبب تكرار الأفكار النفسية لعلماء التراث الإسلامي. فما كتبه عن طبيعة الإنسان والتعلم والشخصية والدوافع وغيرها من ميادين علم النفس تكاد تكون تكرارا رتيبا يستقيه المتأخرون ممن سبقهم. لذلك كان جميع ما كتبه المحدثون حول فكر الأوائل النفسي ينحو نفس هذا المنحى الرتيب.

فجاء كتاب "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" كإسهام عبقري أستطاع مؤلفه أن يتغلب على هاتين المشكلتين أي الصعوبة والترداد الممل. فجاء الزبير بدراسة "مستعرضة" تجنب فيها الدراسة "الطولية" للعلماء القدامى فوضع هيكلها الأساسي ميادين علم النفس المختلفة كالنمو النفسي ودراسة الجهاز العصبي والسيكوفيزياء والتعلم والذكاء والاضطرابات النفسية والعقلية وغيرها من البحوث النفسية والسيكوفسيولوجية وملاً هذا الهيكل بإسهامات علماء التراث بقدرته الفائقة على تبسيط المعلومات وتجريدها من المسائل الكلامية والفلسفية دون تكرار. وكان يركز في بعض فصوله على عالم واحد أو أكثر إذا كان إسهامهم في ذلك الميدان. ولعل هذا الأسلوب المبتكر الذي لم يسبق إليه هو الإسهام الأساسي للدكتور الزبير. فما أن استعنت بكتابه حتى رأيت طلابي يتابعون دروسي بشغف واهتمام.

أما الإسهام الثاني لهذا الكتاب القيم فهو انعكاس واضح لشخصية المؤلف وقدراته العقلية والابتكارية وسعة اطلاعه في ميادين علم النفس المختلفة

بالإضافة إلى مصابراته في استخلاص فكر الأوائل وصياغته في قوالب علم النفس الحديث. لذلك كان لهذا الكتاب تأثيرا كبيرا في تقديم مجموعة من الكشوف العلمية في التراث العربي الإسلامي، مثلا قام الدكتور عمر هارون الخليفة باكتشاف تجارب "مقياس ابن الهيثم للخداع البصري" نتيجة لتأثره بمقالة الزبير عن "سيكوفيزياء الإبصار عند ابن الهيثم". الجدير بالذكر إن أول التجارب السيكلوجية في علم النفس الغربي ترجع لعام 1879 عندما قام فونت بتأسيس معمله الشهير في مدينة لايبزج بألمانيا وذلك بفارق ثمانية قرون من تجارب ابن الهيثم في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي. كما ألف عمر هارون الخليفة كتاب "علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي" امتدادا لمشروع الزبير في التراث العربي الإسلامي. كما تأثرت الباحثة نجدة محمد عبد الرحيم بمقالة الزبير عن "الذكاء لدى الإمام ابن الجوزي" وقامت ببناء مقياس ابن الجوزي للذكاء في أطروحتها للدكتوراة في جامعة الخرطوم.

يدرس كتاب "علم النفس في التراث العربي الإسلامي" في عدة جامعات في العالم العربي والإسلامي، منها على سبيل المثال لا الحصر،: جامعة الخرطوم وجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، وجامعة الامام محمد بن سعود بالسعودية، وجامعة الامارات العربية المتحدة، والجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا. كما تم اقتباس موضوعات الكتاب بكثرة من قبل الباحثين وطلاب علم النفس في كثير من الدوريات العلمية وأوراق المؤتمرات، والكتب وأطروحات الماجستير والدكتوراة في علم النفس. ونرجو أن يترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ولغات العالم الإسلامي المختلفة. فهناك محاولة جارية لترجمة الكتاب إلى لغة الملايو بماليزيا.

وأرجو ألا يفوتني وأنا أقدم لهذا السفر القيم ان أتقدم بشكري الجزيل لإبني البروفسير الزبير على إهداء كتابه إلى شخصي الضعيف. فأعظم ما يشعر الآباء بالامتنان لله سبحانه وتعالى أن يرى في حياته نجاح أبنائه البررة.

بروفسير مالك بدري

الخرطوم 17 رمضان 1425 هـ

الموافق 31 أكتوبر 2004/

شكر وعرفان

إن الحمد كله لله والشكر من بعده لأناس اختصهم بخدمة العلم وطلابه، أخص منهم البروفسير ابراهيم أحمد عمر وزير التعليم العالي والبحث العلمي السابق الذي ابتدر مشروعاً بتمويل الف كتاب جامعي باللغة العربية فهذا الكتاب واحد من ذلك الالف. والشكر موصول الي أسرة جامعة الإمارات العربية المتحدة لا أجد فيها اياما كانت منتجة إذ اعددت فيها بعضاً من فصول هذا الكتاب. كما أشكر الأستاذ الدكتور محمد خالد الطحان الذي قرأ بعضاً من أجزاء هذا المؤلف فوجدت منه حضا كريما وعليما على مواصلة هذا المشوار. والشكر لطلبتي أينما كانوا الذين درستهم بعض مواد هذا الكتاب فتعلمت من محاوراتهم من حيث لا يعلمون. والشكر للاستاذ الدكتور عمر هارون الخليفة الذي كان أحرص مني على تجهيز الطبعة الثالثة من هذا الكتاب إذ قام بإعدادها على حاسبة الشخصي ومراجعتها عدة مرات، اقر الله عينه بابنائيه وتلاميذه كما أقر عيني به. والشكر للدكتور الصديق عمر الصديق والأستاذ حسن سالم جمعة سهل على تدقيق هذا الكتاب بصبر وأناة. اللهم اجزههم عني خير الجزاء. والشكر أخيراً للدكتور جمال التركي مؤسس ورئيس الشبكة العربية للعلوم النفسية على مبادرته الطيبة بنشر الكتاب الكترونياً.

الأهداء

حتى الاخطاء تتعلم منها، فما بالك بأقوال وأفعال مفعمة بالصواب. أستاذى
البروفيسر مالك بدرى قول وفعل؛ فى تقديمه للمعارف النفسية ينظر الى الكل
ولا تغيب عنه الاجزاء؛ لاغرو أنه رأى وأمرانا الكثير من الكون فى
سيكولوجيا التراث.

أستاذنا المرحوم البروفيسر التجانى الماحى نبه جيلنا ومن قبلنا فى نر من مبكر بأهمية
العناية والدراية بالتراث النفسى العربى الإسلامى. اللهم فاغفر له وارحمه.
أستاذنا البروفيسر طه بعشر علمنا أن النظريات والممارسات النفسية فى
الحضارة الإسلامية وإن طال بها العهد ما نزلت حية لم تمت.
أستاذى البروفيسر ن. ما كنتوش يشدد ويكل تهذيب على ضرورة القراءة
خلف السطور فى نتائج البحث النفسى.
مرجال كنا وما نرنا تتعلم منهم هذا العلم فأليهم أهدي هذا الكتاب.
المؤلف

محتويات كتاب علم النفس في التراث العربي الإسلامي

حسب التقليد المتبع في كثير من كتب علم النفس العام بدأ هذا الكتاب بالمقدمة ثم رتب الأبواب الأخرى بدءاً بالأسس البيولوجية للسلوك ثم النمو فالإدراك فالذاكرة والوظائف الذهنية فالتعلم والشخصية فالصحة النفسية والعلاج العضوي والنفسي.

1. الباب الأول يتكون من أربعة فصول:—

1.1. خطة الكتاب

بدأ هذا الكتاب بمقدمة قصيرة شرح فيها طريقة تنظيم الأبواب والأسباب وراء ذلك التنظيم.

2.1. مفهوم التراث

ثم قدم المؤلف التعريف الذي تبناه لمفهوم التراث وحدوده التاريخية

3.1. خصائص علم النفس في التراث الإسلامي

شمل هذا الفصل عرضاً مطولاً نسبياً لست خصائص رئيسة لعلم النفس التراثي تضمنت مميزاته من حيث الموضوعات والمناهج ومن حيث مداه الزماني واتجاهاته الإنسانية في مقابل الاتجاهات السلوكية والعضوية فضلاً عن بعض مصادراته عن ماهية الإنسان.

4.1. مصادر سايكولوجيا التراث

تم عرض وتقسيم هذه المصادر إلى سبعة أصناف من بينها المطبوعات والمخطوطات من المصنفات القديمة وكذلك كتب التراجم وطبقات الأعلام ثم مصنفات الأدب. كما شملت تلك المصادر كتابات المستشرقين وأعمال ومحاضر المؤتمرات التراثية فضلاً عن إصدارات هيئات إحياء التراث والمبادرات الفردية من الباحثين المعاصرين. وقد اهتم هذا العرض بالمقارنة بين هذه المصادر من حيث قيمتها العلمية لمادة الكتاب.

2.الباب الثانى

الأسس العصبية للسلوك:استعرض هذا الباب علماء التراث وبصفة خاصة الرازى وابن سينا فى تشريحه وفلسجة الجهاز العصبى بشقيه المركزى والطرفى ثم قدم تحليلاً عن نظرية ابن سينا فى النقل العصبى مبيناً مفارقتها للتقليد الجالينى الذى كان سائداً حينئذ. ولكن كان أهم ما فى الباب تحليل للمبادرات الأصيلة لعلماء التراث حين تصدوا لقضية الأسس العصبية للوظائف النفسية والتي اعتبرها الكاتب الأساس العلمى لما يعرف حالياً بعلم النفس الفيزيولوجى. وينبنى الباب أساساً على بحث تم نشره فى المجلة العربية للطب النفسى.

3.الباب الثالث

النمو النفسى: ركز هذا الباب بصفة خاصة على النمو العقلى وعقد مقارنة بين ابن طفيل وجان بياجيه فى مراحل وقوانين النمو بين وفسر فيها أوجه الشبه والخلاف بينهما. وينبنى الباب بصفة جوهرية على بحث تم نشره فى مجلة كلية التربية بجامعة الإمارات.

4.الباب الرابع

الإدراك الحسى: ناقش الباب قضايا الإدراك الحسى كما تبدت فى التراث، مع التركيز على إسهامات الحسن بن الهيثم من حيث تشريحية العين وهندستها البيوفيزيائية وعلاقة ذلك بإدراك البعد والحجم والوضع ثم قوانين البصر والخداعات. وقد اهتم الباب بإيضاح سبق ابن الهيثم فى صياغة بعض القوانين الإدراكية مثل قانون إيميرت وقانون الزاوية البصرية. وهذا الباب يشتمل على بحث نشر فى المجلة العربية للطب النفسى.

5.الباب الخامس

الذاكرة والوظائف الذهنية:عرض الباب إسهامات الفارابى وابن سينا والغزالي فى الوظائف الذهنية حيث بين كيف أن نموذج الذاكرة الثلاثى الذى يشكل ناتج حركة البحث التجريبي المعاصرة هو نموذج مألوف لدى علماء التراث، وقد شمل الباب توصيفاً للعمليات الذهنية عند التراثيين مثل الحفظ والاستدعاء والصيانة والتذكر والنسيان مبيناً فى كل ذلك المتوازيات للصيقة بين التراث واتجاهات علم النفس المعرفى الراهنة. والباب يعتمد على بحثين نشر فى مجلة التربية القطرية والمجلة العربية للطب النفسى.

6.الباب السادس

نظرية التعلم فى التراث الإسلامى:عالج هذا الباب نظريات التعلم الترايطى والمعرفى وعمليات الحدس والإلهام كما تبدت فى التراث مبيناً كيف أن نظرية

التعلم في التراث تقارق بعض النظريات المعاصرة بسبب الاختلافات في المصادر الفكرية. والباب يعتمد على بحث منشور في رسالة الخليج العربي

7. الباب السابع

الذكاء: بدأ الباب بعرض لتطور دراسات الذكاء في التراث الإسلامي مبيناً باختصار إسهامات الجاحظ وأحمد بن نعمان وسهل بن علي البغدادي وابن حبيب. ولكن التركيز كان أساساً على ابن الجوزي الذي قدم نظرية متكاملة عن الذكاء شملت تعريفه وقدراته ومحدداته وفيزيولوجيته. وقد اهتم الباب ببيان المفارقات بين نظرية الذكاء لدى ابن الجوزي والمحدثين مبيناً أن ذلك يرجع إلى الاختلافات الثقافية.

8. الباب الثامن

الصحة النفسية:

شمل هذا الباب فصلين:

1. الصحة النفسية لدى أبي زيد البلخي ويتضمن تعريف الصحة النفسية لديه وكذلك مفهومه لمنشأ الأعراض النفسية وطرق تدبيرها بالإرشاد النفسي وقد تطرق الباب إلى مقارنة موجزة مع إسهامات مسكويه.

9. الباب التاسع

اضطرابات الذهان وصيادتها النفسية في كتاب القانون في الطب. وقد بين الباب المفاهيم والممارسات النفسية التي تفرد بها التراث. يبنى الباب على بحثين مقدمين في مؤتمرات دوليين في الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية وبحثين منشورين في المجلة العربية للطب النفسي.

9. الباب التاسع

تضمن هذا الباب أربعة فصول:

1. علم النفس دائن ومدين. تحت هذا العنوان عالج الكتاب جدلية الأصالة والتقليد في سايكولوجيا التراث مبيناً تأثيرات الإسهامات اليونانية، خاصة وقد كان علماء التراث حريصين على إثبات مصادرهم.

2. التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر.

يبين هذا الفصل معابر الثقافة العربية الإسلامية للعالم الغربي وحاول أن يتتبع تطور الأفكار التراثية النفسية في الفكر الغربي.

3. تأصيل علم النفس في العالم العربي الإسلامي.

عالج هذا الفصل قضية التأصيل وناقش مسوغاتها وإمكانية اعتبار التراث أحد مواردها.

4. ماهية الإنسان

ناقش هذا الفصل باستفاضة المصادر التراثية فيما يتصل بهذه القضية الشائكة، وقد اهتم بعقد المقارنات بين هذه المصادر والتطورات الأكثر حداثة فيما يتصل بماهية الإنسان بين المشتغلين بالعلوم النفسية فى المؤسسة الأكاديمية الغربية والشرقية. وقد ناقش الفصل بعناية خاصة آراء إكلز (الحائز على نوبل للسلام) فى أبحاثه ذات الصلة، وبعض الباحثين فى أكاديمية العلوم السوفيتية الذين تبنا ما يسمى بحملة البروسترويكا السايكولوجية.

الباب الأول: تقديم خطة الكتاب

1.1. تقديم خطة الكتاب

لم يكن من أغراض هذا الكتاب وليس في استطاعة مؤلفه الإحاطة بالمباحث النفسية في التراث الإسلامي كافة، غير أنه كان من الضروري هنا تحديد الإسهامات السايكولوجية الرئيسية في هذا التراث وتحليل مفرداتها بمستوى معمق نسبياً، ومن ثم محاكمتها إلى الأدب السايكولوجي المعاصر.

لقد كان من الطبيعي في مثل موضوع هذا الكتاب أن يتنازع المؤلف اتجاهان متنافران؛ الاتجاه الكمي التجميعي، والاتجاه النوعي التحليلي. وقد أثر المؤلف الموازنة بين الإتجاهين مع تركيزه على الثاني. وتأسيساً على هذا النهج فقد تم انتخاب جملة من الإسهامات التراثية في علم النفس تميزت أولاً بتكامل بنائها النظري، وثانياً بأصالتها الإسلامية، فضلاً عن تنوعها، ولقد تسنى للمؤلف معالجة هذه الإسهامات في أوقات ومناسبات مختلفة من خلال أبحاث دولية ومحلية، ومن خلال بحوث نشرها في مجلات علمية متخصصة، ومن خلال محاضرات ألقاها على طلبته في جامعتي الخرطوم والإمارات العربية المتحدة.

ولقد كانت المعالجة لهذه المساهمات ترمي إلى قراءة خلف السطور، وتجاوزاً للمفردات الظرفية وتحريراً في المقاصد العلمية التي رمى لها علماء التراث دون اعتساف لدلالات النصوص. وينبغي الاعتراف بأن التراث الإسلامي مليء بالملاحظات السايكولوجية الذكية التي لم يرد ذكرها هنا في هذا الكتاب لأنها لم ترق في نظر المؤلف إلى مستوى البناء النظري المتكامل. وفي كل ذلك جاء تنظيم هذا الكتاب محاكياً قدر المستطاع الاتجاهات المعهودة في تنظيم الكتب المدخلة في علم النفس على النحو الذي يوحي به الفهرس.

2.1. مفهوم التراث

المقصود هنا هو التراث العلمي العربي الإسلامي. فهو عربي بحكم اللغة التي حملت مضامينه، وإسلامي بحكم أصوله المعرفية واتجاهاته البحثية. ويمثل هذا التراث في مجمله ناتج الحركة العلمية والفكرية التي بدأت إثر نزول القرآن

وبلغت قمته (خاصة في مجال السايكولوجيا) في القرن الخامس الهجري-الحادي عشر الميلادي.

ولقد اختلف الدارسون في تحديد الفترة الزمنية التي بدأت فيها هذه الحركة التراثية في التراجع، فبينما يحدد البعض هذه الفترة بالقرن السادس الهجري يذهب آخرون إلى أن التراث ظل يواصل صعوده بدرجات متفاوتة من الإبداع والأصالة حتى القرن السابع والقرن الثامن الهجري، وللذين شهدا العديد من الإنجازات العلمية على يد ابن النفيس، ولسان الدين الخطيب، ونور الدين القدس، وقطب الدين الشيرازي، وابن الشاطر، وابن خلدون، ليس على سبيل الحصر (انظر سيزكين، 1986).

3.1. خصائص علم النفس في التراث الإسلامي

علم النفس في التراث الإسلامي هو في المقام الأول علم نفس، وليس أي شيء آخر. وهو ليس علم نفس فقط من ناحية موضوعاته، والتي شملت بيولوجيا السلوك والوظائف الذهنية والنمو والدوافع والشخصية والصحة النفسية وسايكولوجيا الإجتماع، بل هو فضلا عن ذلك، علم نفس من حيث مناهجه. فقد استخدم علماء التراث بالإضافة إلى الاستبطان (Introspection) منهجي الملاحظة (Observation) ودراسة الحالة (Clinical Method) وتبلور عندهم المنهج التجريبي حتى استكمل عند ابن الهيثم عناصره كافة التي نعرفه عليها اليوم من فرضيات وتحكم ورصد النتائج وتفسيرها.

صحيح أن علم النفس في التراث الإسلامي تشكل (كما تشكلت معارف المسلمين) بموجهات الوحي. ويمكن بالفعل اعتبار القرآن الكريم، بصفة خاصة، قاعدة لكافة العلوم الإنسانية في التراث الإسلامي (انظر أيضاً أوليري). ومع ذلك فإن علم النفس في التراث كان نتاجا لجهد بشري، تبلورت من خلاله موضوعات ومناهج وقيم بحثية وأطر نظرية ميزت هذا المجال المعرفي عما سواه من المعارف الإسلامية الشرعية.

ويحسن في هذا السياق أن نعرض إلى شبهة قوية ومثيرة للجدل، وهي أن الدراسات النفسية في التراث الإسلامي لم تكن مجموعة في مجال معرفي واحد يُعرف، كما هو معروف اليوم، باسم علم النفس أو السيكولوجيا. فإن كان المقصود بذلك أننا لم نرث من علمائنا الأوائل سفراً واحداً جمع بين دفتيه كل موضوعات علم النفس المنهجية فالشبهة صحيحة. لقد اهتمت المؤلفات الطبية التراثية، فقط بالأسس البيولوجية للسلوك، وخصص الفلاسفة معالجاتهم النفسية لمشكلات الإدراك والتعلم، وانتداب الرياضيون والفيزيائيون أنفسهم لما يمكن أن نسميه اليوم بالسيكوفيزياء (Psychophysics) وعكفت كتابات المتصوفة على تحايل الظواهر فوق الحسية، واختصت دراسات المؤرخين بأثر الاجتماع والسياسة

على السلوك. إن فقد عالج الظواهر النفسية من عالجها من علماء التراث، كل من زاوية اهتمامه العلمي. ولكنهم بدون استثناء عالجوها على وعي تام بأنها وظائف وعمليات وعلاقات في النفس الإنسانية وقد يصادف أن يجمع العالم التراثي في وقت واحد أكثر من صفة، فتتسع معالجاته للقضايا النفسية بقدر تنوع إهتماماته. فمنهم من عالج الاحساس والإدراك والتعلم وبيولوجيا السلوك في سفر واحد مثل ابن سينا، ومنهم من جمع إلى كل ذلك النمو مثل ابن طفيل، ومنهم من اهتم بالإدراك والتعلم والدافعية والوظائف الوجدانية مثل الغزالي، ومنهم من تخصص في فرعية سايلكولوجية دقيقة مثل ابن الهيثم في البصريات.

وقد يشتهر البعض في وجود علم النفس أصلاً، في التراث الإسلامي، بسبب أنه لم يكن حينئذ علماً واحداً يجتمع حوله أهله، والحق يقال أن علم النفس في التراث الإسلامي لم يكن صنعة واحدة يجتمع عليها أهلها، كما كان النحو صنعة تجمع النحويين، والشعر صنعة تجمع الشعراء. ولكن ليس في ذلك ما يصلح مقدمة نرفض بمقتضاها وجود علم النفس أصلاً في التراث الإسلامي، وإلا فإننا بهذه الشبهة ننكر وجود علم النفس أصلاً في التراث الإسلامي بل في أي مرحلة تاريخية قبله أو بعده. فعلم النفس لم يكن ولا يصلح أن يكون صنعة واحدة كالنحو مثلاً. وهذه حقيقة عن علم النفس لم تكن أكثر وضوحاً وجلاءً عما هي عليه اليوم. لقد انجذب إلى علم النفس المعاصر علماء من تخصصات متفرقة قد لا يجمع بينهما جامع إنجذب إليه الأطباء والفيزيولوجيون والكيميائيون والصيدليون، والفيزيائيون والرياضيون واللغويون وعلماء الاجتماع والسياسة. ويمكن القول أن التواصل بين بعض هذه المجموعات ضعيف وقد يكون منعزلاً في بعض أحواله.

ان علم النفس المعاصر يواجه أزمة هوية (Crisis of Identity) بالمستوى نفسه الذي واجهها به علم النفس في التراث الإسلامي، ومع ذلك فإن علم النفس كان وما يزال يتمتع بقدر - وإن كان متواضعاً أحياناً - من التماسك الداخلي يمنع تفككه إلى علوم نفسية متعددة.

لئن كان علم النفس في التراث الإسلامي موازياً لعلم النفس المعاصر من حيث المبادئ والمناهج الموضوعات، فقد ظل يحتفظ مع ذلك ببعض خصوصياته ولا غرو، فالعلم محض العلم، ناقل لبعض خصائص بيئته التي نشأ فيها، وحامل لبعض قيم الأجيال التي أنتجت (انظر كوون⁽¹⁾ 1966 Kuhn، بدرى 1979).

ومن خصائص الثقافة الإسلامية التي نقلها علم النفس في التراث الإسلامي سعة المدى الزمني للظاهرة الإنسانية - فهي لا تبدأ بالإخصاب أو بداية المرحلة الجنينية ولا تنتهي بالوفاة بل تمتد بدايات الظاهرة الإنسانية في التراث الإسلامي إلى ما وراء التخلق الجنيني حيث الاعتقاد بأن

الله أشهد نزية بني آدم على أنفسهم وهي مرحلة الإشهاد التي تشير إليها الآية (172)² من سورة الأعراف. وفي بعض معانيها فإن مرحلة الإشهاد تمثل حالة من حالات الوعي الإنساني خضع لها كل فرد قبل أن يُجمع في رحم أمه نطفة أمشاجاً.

وتمتد الظاهرة الإنسانية في العقيدة الإسلامية حتى تتجاوز مرحلة الحياة الى ما وراء الوفاة وتأثراً بذلك نجد علم النفس في التراث يحاول تفسير هذه الظاهرة في مداها المألوف من الإخصاب إلى الموت وفوق هذا المدى وتحتة.

ومن خصائص علم النفس التراثي دراسة الظاهرة الإنسانية في مجالها الإنساني – فمادة الدراسات النفسية هي أساساً الإنسان نفسه- فقد اعتمدت نظريات الإدراك والتعلم والذاكرة والدافعية في التراث على الملاحظات والتجارب في السلوك الإنساني وحتى في الأبحاث البيولوجية لم يجد التراثيون حرجاً في تشريح جثة الأدمي (انظر قطابة 1982 ، أولبرى، 1984).

وتتضح بهذا التركيز الإنساني المفارقة بين علم النفس التراثي وبين النمط الحديث الذي حمل السلوكيين ، مثلاً، على اعتماد التجربة الحيوانية أساساً للدراسات النفسية. ويتميز علم نفس التراث الإسلامي أيضاً في مقاصده فقد صرح علماءه في أكثر من موضع أن استكشافهم للنفس الإنسانية وراءها غاية أخرى هي معرفة الله (انظر القانون، حي بن يقظان، إحياء علوم الدين، كتاب المناظر).

ولقد بلغ علم النفس كسائر المعارف في التراث الإسلامي طوراً معرفياً متقدماً دون أن تكون لتطوره دوافع أكثر إلحاحاً من هذا الدافع المدني، معرفة الله. فلم يرتبط تطور سايكولوجيا التراث الإسلامي بأهداف عسكرية ولم يكن الغرض منه الارتقاء بكفاءة الصراع في الأمة الإسلامية في مواجهاتها مع الأمم الأخرى.

ومن الخصائص أيضاً أن علم النفس في التراث الإسلامي يصير باستمرار على التصور الثنائي لماهية الإنسان: قبضة من طين ونفخة من روح. وينعكس ذلك دوماً على الأطروحات الإسلامية في النمو والإدراك والتعلم والشخصية والصحة النفسية وأبحاث الذكاء وغيرها. ولقد حملت هذه الأطروحات أوجه شبه كثيرة مع المعارف السايكولوجية المعاصرة إلا أنها تبدو وبكل تأكيد متحررة من الإحالات الميكانيكية أو العضوية للنظريات النفسية المتداولة قديماً أو حديثاً. سايكولوجيا التراث إذن تربطها بعلم النفس المعاصر متوازيات لصيقة وتحفظ مع ذلك بخصائص مميزة اكتسبتها من الثقافة الإسلامية.

4.1. مصادر سايكولوجيا التراث

لا يوجد حتى يومنا هذا سفر جامع للمعارف السايكولوجية في التراث الإسلامي. فهي معارف مجزأة، بعضها في كتب التراث وبعضها في المصنفات الحديثة وبعضها نتاج جهود مؤسسية وبعضها بشكل مبادرات محدودة قام بها

الأفراد. فالقصة الكاملة لسايكولوجيا التراث، إذن لم تُكتب بعد. وفي العموم توجد مصادر انبنت وتنبى عليها محاولات الإحاطة بعلم النفس في التراث الإسلامي وتحليل مفرداته وتبيين منظوماته المعرفية وتتبع التطورات التي طرأت على مناهجه الأساسية. وأولها بالطبع التصنيفات التراثية التي وفرت كل مساحتها أو جزءاً مقدراً منها للقضايا النفسية. وتحتوي هذه التصنيفات ليس فقط الموضوعات السيكولوجية والمناهج البحثية بل أيضاً تشكل مادة تُورخ للمفاهيم كيف تكونت وكيف تطورت، فنستطيع مثلاً أن نرى في هذا السياق كيف اقتبس ابن سينا من الرازي بعض مكونات نظريته الإدراكية وكيف تأثر بهما من بعدهما الإمام الغزالي - وإذا أخذنا فكرة الطفل المسيب *The Abandoned Child*³ في التراث الإسلامي فيسكون بوسعنا أن نرى كيف اقتبس ابن طفيل فكرة حي بن يقظان، وهي في صورتها الساذجة نسبياً، من ابن سينا وبلور منها فكرة بالغة التعقيد، وقس على ذلك عشرات الأمثلة.

وتأتي في المرتبة الثانية كتب التراجم وطبقات الأعلام التراثية. وبعض هذه الكتب غنية بمادتها السايكولوجية مثل طبقات الأطباء (انظر مثلاً ابن أبي أصيبعة وابن جلجل) وبعضها اتسع ليشمل تراجم جميع أعلام الفكر. ويحمد لأمثال هذه الكتب أنها حققت التاريخ الزمني للأعلام أنفسهم ولإنجازتهم العلمية في كثير من الأحيان، مشكلة بذلك قاعدة متينة تمكننا من متابعة تطورات المفاهيم. ولكن يؤخذ على كتب التراجم هذه أسلوب (الكاتالوج) الذي يعني بالتجميع دون الربط والتحليل.

وفي سياق كتب التراجم يمكن الإشارة والإشادة بالمصادر التي أرخت للجماعات مثل كتاب الشهرستاني، وكتاب ابن الجوزي في الملل والنحل فقد عالجت هذه الكتب بعض إسهامات التراث السايكولوجية وإن اتسمت معالجتها بالطبيعة الفلسفية.

ويأتي المصدر الثالث لسايكولوجيا التراث من زوايا غير متوقعة، من كتب الأدب، فالمصنفات الأدبية أمثال كتاب الأغاني، الإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد يحمدها أنها حوت تفاصيل مفيدة عن بعض ما سكنت عنه أو اختزلته المؤلفات النفسية. ومن أمثلة ذلك، التفاصيل المفيدة في الأغاني عن قصة أحد أقرباء حاكم جرجان الذي عانى من بعض الأعراض الاكتئابية نتيجة إصابته بما يُسمى في التراث بداء العشق، لقد أحيل هذا المريض لابن سينا وذكر في القانون باختصار شديد تشخيصه لهذه الحالة باستخدام النبض كواحدة من دلالات التغذية البيولوجية (Biofeedback). ولكن كتاب الأغاني حوى تفاصيل مفيدة أغفلها ابن سينا بسبب أخلاق المهنة والمنهج العلمي الإختزالي وقد حوت كتب الأدب أيضاً تفاصيل تجارب الفارابي عن أثر سماع الأنغام الموسيقية على الاستجابات الوجدانية.

ويؤخذ على كتب الأدب أنها تميل إلى المبالغة الميلودرامية للأحداث العلمية وأنها بذلك قد تبثذل المعنى العلمي لما تتناوله من قضايا. ولكن كتب الأدب لها منطقتها المهني فقد اعتمدت المهمة الإعلامية واحدة من وظائفها، فهي تمثل في التراث ماتمته الوسائط الإعلامية في الظرف الراهن فهي بذلك غير ملزمة من حيث الأسلوب بما تلزم به نظائرها من المؤلفات العلمية.

ويمكن اعتماد الكتب الغربية التي أرخت للعلوم عامة، والعلوم العربية الإسلامية خاصة، نوعاً رابعاً من مصادر سايلوجيا التراث، ولاعجب أن اهتم الباحثون الغربيون من أمثال سارتون وسيديو وأوليري وديورانت⁴ بالتراث الإسلامي فهم جميعاً يؤكدون تلميحاً أو تصريحاً أن الفترة الإسلامية كانت على الأقل معبراً نفذت من خلاله العلوم الإنسانية إلى عصر النهضة. وقد تمتعت بعض هذه المؤلفات بمستوى مرض من التجرد والحيدة وإن عانى بعضها من التعصب.

وتشكل أبحاث ومحاضر أعمال ومداومات المؤتمرات التراثية مصدراً إضافياً هاماً لسايكوجيا التراث. ولئن كانت المؤتمرات في علم النفس الإسلامي بصفة خاصة تعتبر نادرة جداً⁵ إلا أن مؤتمرات الطب الإسلامي السنوية تعوض عن هذه الندرة بما توفره من مساحات مقدرة لعلم نفس التراث؛ وفي هذا السياق تجدر الإشارة والإشادة بهيئات ولجان ومجالس إحياء التراث الإسلامي، التي لاقتناً تصدر بعض المطبوعات الغنية بأحدث المقالات في الدوريات التراثية. ولاهتمامه بالعلوم السلوكية فإن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن مساهمات مقدرة في بعث التراث السايكولوجي.⁶

وتبقى هذه الجهود المؤسسية فارغة إذا أخذت مجردة من المبادرات الفردية للعلماء أو الدارسين، وفي هذا السياق تجدر الإشارة والإشادة بأول وأقوى الدراسات الحديثة في مجال سايلوجيا التراث وهي دراسة الاستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي (1940) عن نظرية الإدراك الحسي عند ابن سينا. لقد أرست هذه الدراسة منهجاً متماسكاً ينظر إلى إسهامات علماء نفس التراث في سياقها التاريخي، ويكشف مداخلات الفكر اليوناني بأمانة ويوضح الابتكارات الأصلية فيها مبيناً تحديدها لعامل الزمن. وقد تزامن مع هذه الدراسة دراسات عن سايلوجيا ابن الجوزي وابن الهيثم⁷ وما لبث أن أعقب ذلك جيل آخر من الدراسات في سايلكولوجيا التراث من بينها دراسة عبد الكريم العثمان عن علم نفس الغزالي، ومما يؤسف له أن تشهد السبعينيات والثمانينيات كساداً في الدراسات السايكولوجية في التراث مقارنة بالأربعينيات والخمسينيات والستينيات والتي كانت نسبياً حقياً منتجة في هذا المجال.

فمن هذه المصادر جميعاً ومن الفعاليات المتوقعة من حركة بعث التراث المتسارعة الخطى تتجمع مادة سايلكوجيا التراث في انتظار المزيد من التحليلات الثاقبة المتأنية حتى ينجلي حجم الأثر العظيم الذي تركته على تفكيرنا السايكولوجي المعاصر.

الهوامش

Kuhn, Thomas (1967). The nature of Scientific Discovery. ⁽¹⁾

(2) - (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا..) صدق الله العظيم

(3) أنظر بونج.

(4) سارتون (1960). ألىرى (1987)، سىديو (1970)، ديروانت (1950).

(5) لا يعرف المؤلف مؤتمراً تخصصت مداولاته فى الاسلام وعلم النفس إلا مؤتمر جامعة الملك عبد العزيز بمكة عام 1978.

(6) شارك المعهد العالمى جامعة الخرطوم فى مؤتمر إسلامية المعرفة بعنوان المنهجية والعلوم السلوكية الخرطوم 1987

(7) انظر فؤاد أبوحطب (1978)

الكتاب الإلكتروني لشبكة العلوم النفسية العربية: العدد 21



إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2011

أ.د. الزبير بشير طه

- الاختصاص : علم النفس
- الشهادات العلمية
- نال درجة ماجستير الآداب 1976
- ماجستير العلوم 1978
- الدكتوراة في علم النفس
الفسولوجي 1982



الممارسات المهنية:

-عمل بالتدريس في جامعة الخرطوم، وجامعة الجزيرة، ومعهد الموسيقى والمسرح بالسودان، وجامعة أم درمان الاسلامية وجامعة الامارات العربية المتحدة

-أشرف على أكثر من 50 رسالة ماجستير ودكتوراة في علم النفس

- قدم العديد من الأوراق العلمية في المؤتمرات الحلية والاقليمية والعالمية كما هو عضو بهيئات تحرير بعض الدوريات العلمية في السودان وافريقيا

- يعمل رئيسا للجمعية النفسية السودانية، ورئيسا للرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين

- عمل رئيسا لقسم علم النفس جامعة الخرطوم، ونائبا ومديرا لجامعة الخرطوم، ووزيرا للتعليم العالي والبحث العلمي، وزيرا للعلوم والتقانة، ووزيرا للداخلية، ووزيرا للزراعة، وواليا للجزيرة بالسودان.

▪ المؤلفات النفسية:

نشر أبحاثه العلمية باللغة العربية والانجليزية في دوريات عالمية واقليمية ومحلية في مجالات علم النفس الفسولوجي، وعلم النفس التطبيقي، وعلم النفس في التراث العربي الإسلامي

